

البحث الميداني في الدراسات السوسيوسياسية

وإشكالية الحذر في مجتمع الخوف

أ/ كرايس الجيلي

جامعة وهران - الجزائر

kerais2014@hotmail.fr

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2018/11/15	2018/07/12	2018/07/06

الملخص:

يعتبر البحث الميداني الخطوة الأساسية في أي دراسة اجتماعية، حتى نخرجنا من دائرة اللاعلمية ويجعلنا نبتعد عن الأحكام القيمية والتنبؤات الفلسفية، لذلك أصبحت الدراسات الابريقية اليوم تعتبر الركيزة الأساسية التي يقوم عليها أي بحث اجتماعي، حيث أن الميدان والتواصل مع مجتمع البحث وجمع المعلومات من أرض المعركة الاجتماعية، يعتبر اقرب طريقة لفهم الظاهرة الإنسانية ذات التعقيدات الجمة، لكن تبقى لخصوصية المجتمع ومدى انخراطه في الحداثة اثر بالغ على نجاح تلك الدراسات الميدانية، خاصة لما يتعلق الأمر ببحث سوسيوسياسيو في مجتمعاتنا التي تعاني من الخوف، والقمع، وترتبط بين فكرة السؤال عن ميولتها السياسية، وفكرة المخبر ورجل الأمن، ولذلك فالمجتمع يتعامل بحذر مع الباحث، وفي كثير من الأحيان يرفض التعامل معه، أو تقديم تصريحات كاذبة حول موقفه السياسي وهذا ما اثر على نوعية البحوث الاجتماعية ومدى مطابقتها لمعايير الجودة، وأصبحت النتائج

المتوصل إليها لا تعكس حقائق بقدر ما تعكس واجهات، وهذا ما سنحاول التطرق إليه في هذه الورقة البحثية.

الكلمات المفتاحية:

البحث السوسيوسياسي؛ مجتمع الخوف؛ الجودة؛ البحث الامبريقي؛ المخبر.

Abstract:

The field work is considered the main step in any social study. It get out of a circle of non-scientific and make us move away from value judgments and philosophical predictions. Therefore, the empirical studies today are regarded as the cornerstone of any social research since the field and communication with the research population and the collection of information from the social battlefield is the closest way to understanding the human phenomenon of great complexity, but the privacy of the society and the extent of its involvement in modernity have a great effectiveness on the success of these field studies, especially with regard to socio-political research and in our societies that are suffering from fear and repression. In fact, the connection between the idea of the question about the political orientation and the idea of the detective and the security agent is the population deals with the researcher cautiously, and often refuses to deal with him or make false statements about his political position and this affected the quality of social research and the extent of conformity to quality standards. In their view, they do not reflect facts as much as they reflect interfaces, and this is what we will try to address in this paper

Key words:

Socio-political research; society of fear; quality; empirical research; detective.

مقدمة:

يقول زيجمونت باومن في مقدمة كتابه الأخلاق في زمن الحداثة السائلة: «هذا الكتاب تقرير من ارض المعركة ، الأرض التي نناضل عليها من

اجل العثور على الطرق الجديدة والمناسبة من التفكير في، حول، ومن اجل العالم الذي نعيش فيه ومن أجل حيواتنا في ذلك العالم⁽¹⁾ أيأن الحقيقة اليوم لا توجد في مكاتب الباحثين أو المفكرين، الحقيقة هناك في ارض المعركة، حيث تتفاعل الظواهر الاجتماعية، وهو تفاعل سريع وخطير لا يمكن الإلمام به، لكن من الضروري متابعته وتتبع حيثياته، حتى نستطيع الحديث عن فهم الظاهرة الاجتماعية، اخذين في الحسبان كل الصعوبات والمعوقات، التي تحكم الظاهرة الإنسانية والاجتماعية، حيث لا دقة ولا جزم ولا نتائج مطلقة، كل شيء في حكم المشكوك فيه، ربما لن نجانب الصواب إن قلنا إن الظواهر الاجتماعية هي علم دراسة الشك، فكلما استيقن الباحث من دراساته ونتائجه ابتعد عن الحس السوسيولوجي، لان الميدان هو وحده القادر على تقربنا من فهم ظاهرة ما، وحتى النظريات الكبرى تجد نفسها عاجزة أمام فهم التحول السياسي في قرية ما، التي تحتاج أن ننزل إليها وان لا نستهيئ بقدرات سكنها، فيمكن أن يساعدونا على معرفة الواقع ويمكن أيضا أن يجعلونا نكتب كثيرا، لكن عن أوهام وعن السراب، ومن ثما فالسوسيولوجيا الحقيقية هي سوسيولوجيا المضمهر والمسكوت عنه⁽²⁾، لا سوسيولوجيا التنظير السطحي أو الأحكام القيمية، خاصة إذا كان الموضوع سوسيوسياسي فان معرفة الواقع أو الاقتراب منه يكون ذو مشقة جمّة، خاصة في مجتمعاتنا التي تحكمها علاقة مأزوم بالسلطة السياسية، بل هي تعيش رهاب الاعتقال بتهمة التخابر ضد النظام، لذلك لا تتوقع مني أن أخبرك بتوجهي السياسي بسهولة، ومن هنا جاءت هذه الورقة البحثية طارحة السؤال التالي: ما هي الصعوبات التي يتلقها الباحث في مجال الدراسات السوسيوسياسية في مجتمعاتنا العربية؟ وكيف تحول الميدان إلى اكبر عائق أمام نجاعة وجودة الدراسة؟

الفرضيات:

البحوث السوسيوسياسية تعرف صعوبات ومعوقات على مستوى البحث الميداني.

هناك خوف وشك، في كل من يسألونا عن ميولتنا السياسية. مقاومة المبحوث تؤثر في جودة نتائج الأبحاث ذات الطابع السياسي. المدخل النظري: سنعتمد في هذه الدراسة النزعة الامبريقية عند بيار بورديو كاستراتيجية مهمة في معرفة واقع المجتمع الذي لا يصرح بسهولة بمواقفه ولذلك نحن بحاجة إلى دراسات ميدانية جادة تتعامل مع المبحثن على أنهم يمتلكون إستراتيجية وخطة دفاعية يتعاملون من خلالها مع الباحث، ويمكن أن يؤثروا على نتائج البحث إذا لم يستطع الباحث كسب ثقتهم وتحليلهم من هواجسهم.

المنهج: لقد اعتمدنا في هذه الورقة على منهج التحليل الكيفي وهو يتلاءم مع البحوث الكيفية، حيث نسعى إلى فهم واقع البحوث السوسيوسياسية والمشاكل التي تصادف الباحثين.

العينة: لقد اعتمدنا على مجموعة من الباحثين من مختلف المستويات ماستر، ماجستير، دكتور، وهم مختصين في علم الاجتماع السياسي، وهي عينة مكونة من 12 مبحوث، كلهم قد قاموا ببحوث ميدانية وقد صادفتهم عدة معوقات من بينها تخوف المبحثن وعدم تعاونهم في عملية التصريح بتوجهاتهم، مما اثر على نتائج دراستهم.

التقنية: اعتمدنا على تقنية المقابلة كونها تتلاءم مع البحوث الكيفية، وذلك من اجل فهم أعمق للظاهرة واستنطاق المشتغلين بها.

شرح المفاهيم:

سنعتمد في هذه الورقة على التعريفات الإجرائية لمفاهيم الدراسة، وهي تعريفات مستوحاة من الواقع، خاصة أننا مشتغلين بحقل علم الاجتماع

السياسي، وعلى احتكاك دائم بالميدان، كما أن التعريفات الإجرائية تجعلنا نبتعد عن التكرار، وعن الإسقاط الجامد للمفاهيم النظرية دون مراعاة خصوصية الميدان والظاهرة.

البحث السوسيوسياسي: (Recherche sociopolitique) ونقصد به الدراسات والبحوث التي تهتم بالظواهر السياسية وموقف الأفراد من السلطة الحاكمة، أو موقفهم من المشاركة الانتخابية، وهي بحوث تعتمد على المعطيات الميدانية، أي تقتضي نزول الباحث إلى الميدان وسبر آراء المبحثن مباشرة، وهي بحوث تتميز بنوع من التعقيد نظرا لطبيعة العلاقة بين السلطة والمجتمع في عالمنا العربي بصفة عامة.

مجتمع الخوف: (Société de la peur) ونقصد به المجتمع المحلي الذي تربطه علاقة مازومة مع السلطة السياسية، وهي علاقة ناتجة عن تراكمات تاريخية وثقافية نظرا للوقائع التاريخية التي مر بها، ولذلك هو يخشى من التصريح بمولته ومواقفه السياسية، وهو يعتبر كل شخص يسأله في مثل هذه القضايا انما هو يريد الايقاع به والوشاية به لدى السلطة الحاكمة، ولذلك نجده يتحفظ في الخوض في القضايا السياسية.

الجودة: (La qualité) ونقصد بها مدى تحقيق البحوث للأهداف المتوخاة منها، ومدى تمتعها بالمصداقية، أي أن الجودة هي مدى رصانة الدراسة وعكسها لواقع المجتمع، كما أنها لا تتحقق إلا عن طريق بحوث ذات خلفية نظرية قوية، بالإضافة إلى دراسة ميدانية ذات مصداقية عن طريق اختيار العينة المناسبة ومدى تعاونها كذلك في تقديم حقائق عن المجتمع، وهذا يعني أيضا تعاون من طرف مجتمع الدراسة بالإضافة إلى تمتع الباحث بذكاء وخيال سوسيولوجي واسع.

البحث الامبريقي: (Recherche empirique) ونقصد به البحوث الميدانية التي تعتمد على تحقيقات ميدانية وهي البحوث الشائعة اليوم في الدراسات السوسيولوجية وفي العلوم الاجتماعية والسياسية بصفة عامة، حيث أنها تتمتع بنوع من المصداقية، إذ أنها تجبر الباحث على قياس الظاهرة بعيدا عن الإسقاطات النظرية الجاهزة التي لم تعد قابلة للتعميم، حيث أن لكل مجتمع خصوصيته.

المخبر: (Indicateur) ونقصد به الباحث وكيف يتمثله المبحثين في مجتمع الخوف، أو ذلك المجتمع الذي تحكمه علاقة مبنية على الخوف اتجاه السلطة السياسية، حيث يأخذ الباحث شكل البوليس السري، الذي يسعى إلى التجسس علينا ومعرفة آرائنا السياسية من اجل الوشاية بنا للسلطة الحاكمة، ولذلك نجد المجتمع يرفض مثل هذه البحوث، أو يتعامل بنوع من التحايل مع الباحث، ولا يصرح بمواقفه الحقيقية أثناء استجوابه.

البحث الميداني وفكرة التقرير من أرض المعركة:

يقول بيار بورديو: "النظرية بدون بحث إمبريقي خواء والبحث الإمبريقي بدون نظرية هراء".⁽³⁾ إن مقولة بورديو هذه تجعلنا ندرك انه لا مفر من الجانب النظري الذي ينقلنا من إنتاج المعرفة العامة إلى إنتاج المعرفة العلمية، لكن من جهة أخرى تبقى التحقيقات الميدانية والامبريقية هي القيمة المضافة لأي دراسة نقوم بها، لان الواقع متحرك والظاهرة الإنسانية غير ثابتة، ونحن دائما بحاجة إلى إعادة استنطاقها، والاستنطاق لا يكون إلا عن طريق ممارسة مهنة السوسيولوجيا، خاصة إذا كانت أبحاثنا تسعى إلى مناشفة الشأن السياسي، ومعرفة كل ما هو مخفي ومنسي وعميق لدى المجتمع، من تصورات واءاء سياسية، إنها مهمة صعبة وهذا مشار إليه كل المبحثين، حيث صرح احدهم: " ليس من السهل أن تجعل أناس لا يعرفونك إلا من خلال الهوية

التي قدمت بها نفسك، يخبروك عن موقفهم من السلطة الحاكمة، أو عن عدم مشاركتهم في الانتخابات، ففي كثير من الأحيان لن تجد إلا من يقول لك الوضع بخير وأنا دائما أدلي بصوتي"⁽⁴⁾ وهنا تكمن صعوبة الميدان وصعوبة إعداد تقريرك عن الجبهة الاجتماعية، حيث الهيمنة ومراكز القوة هي التي تصنع الحدث ويمكن أن تؤثر على نتيجة الدراسة حيث يشير كل من هس بير وباتريسيا ليفي العلاقة القوة وحقيقة في البحوث الاجتماعية ثم يقران بان القوة وحدها هي التي تقرر ما سوف تكون عليه النتائج المرجوة من أي دراسة.⁽⁵⁾

إذا البحث الميداني أو الامبريقي والذي أصبح عمادة أي دراسة سوسيولوجية لا يعتبر مهمة سهلة المثال خاصة في مجتمعاتنا التي لم تفهم بعد هذه الدراسات ومدى أهميتها، ولذلك فالباحثون يتلقون الكثير من الصعوبات، انطلاقا من ظروف دراستهم وتدريسهم، إلى إشكالية التمويل والاهتمام الفعلي بما يقدمونه من دراسات حول المجتمع، وصولا إلى معوق الميدان خاصة في الدراسات السوسيوسياسية، حيث يصبح مجتمع الدراسة أكبر خطر على البحث، بل يساهم مساهمة فعلية في تشويه النتائج والتوصل إلى نتائج غير رصينة وغير علمية إلى حد ما، حيث يبقى الاعتماد على قدرات الباحث، وعلى الدراسات السابقة، وكذلك الملاحظة الثابتة أفضل حل لتلافي ما يصادف البحوث الامبريكية من عراقيل ميدانية، يقول احد الباحثين: " لا يمكن أن تثق في البحوث وان تستسلم لإجاباته، ومن جهة أخرى لا يحق لك أن تتدخل من اجل تعديل نتيجة البحث، رغم انك مدرك أن البحوث غير راضي عن تصرفات بعض أعوان حفظ النظام عبر الطرقات، لكنه مضطر ليقول لك هم يقومون بدورهم ويحموننا عبر الطرقات"⁽⁶⁾.

إذا فلبحث الميداني والتواصل مع الباحثين من أجل دراسة المواقف السياسية ليس بالأمر السهل وهو يجعل الباحث يعد تقريراً عن معركة فيها الكثير من المفاجآت، التي تستدعي منه المزاوجة بين حس سسيولوجي فائق من جهة ومن جهة أخرى عليه أن يخضع لأخلاقيات البحث العلمي وإن لا يتدخل بشكل فض في تصريحات الباحثين، لكن مع ذلك يمكن أحياناً اللجوء إلى ما يعرف بالخداع الاستراتيجي خاصة عندما يكون الباحث مهتم بعلة القوم⁽⁷⁾، فالمجتمع لا يريد إن يدلي بصريحات يمكن إن تحسب عليه، ولذلك نجده يحاول دائماً تفادي الأسئلة المباشرة، وهنا يمكن للباحث أن يستعمل أدوات أخرى حتى يتحصل على الإجابة التي يعتبرها صحيحة، أو صادقة من طرف المبحوث، لكن دون إرباكه أو السماح للقلق والشك والتوتر بأن يصل إلى، حيث سيضطر إلى رفض المواصله، أو حتى تشويه صورة الباحث في الحي أو المؤسسة أو المدرسة، وهذا ما تعرض له أحد الباحثين حيث رفض مجتمع الدراسة التعامل معه كونه يتناول قضية السلفيين وموقفهم من الالتحاق بالمؤسسات الأمنية، كما أنه توجه مباشرة إلى الميدان دون الاستعانة بما يعرف بالمخبرين أو الشهود المفضلين⁽⁸⁾، وإذا عدنا إلى أهمية التحقيق الميداني في الدراسات السوسولوجية نجده يكتسي أهمية بالغة خاصة مع المرحلة السلوكية، حيث أصبح الميدان وخصوصية الواقعة الاجتماعية تلعب دوراً محورياً في مدى علمية أي دراسة، فالتخمينات والإسقاطات الاعتبارية لم تعد تقنع المجتمعات العلمية، كما إن النماذج المعرفية الجاهزة لم تعد قادرة على فهم الظواهر الاجتماعية خاصة السياسية منها، فلكل مجتمع تجربته وكيانه الخاص، ولذلك يرى عبد الغني عماد إن البحوث السوسولوجية مع القرن العشرين حققت إنجازات هامة عن طريق تقنيات جمع الحقائق، بالإضافة إلى صياغة الفروض لإقامة العلاقة بين المتغيرات⁽⁹⁾، أي أن الباحث أصبح ملزماً

بقياس الظاهرة في مسقط رأسها ومعاينة التفاعلات الاجتماعية لحظة تفاعلها، وكل هذه الإجراءات تصبح أكثر تعقيدا في مجتمعاتنا التقليدية، أو مجتمعات العالم الثالث، حيث نريد حدود فاصلة وواضحة بيننا وبين الشأن السياسي، لا نريد أن تلصق بنا تهمة المعارضة أو الامتناع من الوضع القائم، فنحن لا نريد الدخول في مواجهة مع السلطة واذرعها الأمنية، ولذلك نحن مجتمعات غير معرفة أو بدون ألف ولام فالمجتمع لا يريد التصادم مع السلطة والسلطة تريد أن تحافظ على صورة الخطر الداهم الذي يعرف كل شيء عنا، وربما هذا ما دفع بإدغار موران إلى التصريح بأن الدولة هي ذلك الواقع الذي أنشأه وأبقاه العنف المميت⁽¹⁰⁾. وهنا يمكن القول إن البحث الميداني وفكرة التقاط صورة حية عن التفاعلات الاجتماعية والسياسية والثقافية، قبل صياغة التقرير النهائي أو تقديم نتائج الدراسة، يكتسي أهمية بالغة في الدراسات الاجتماعية الحديثة، لكنه يبقى يتميز بمعوق ليس من السهل تجاوزه، وهو عدم تعاون الباحثين، خاصة في الدراسات السوسيوسياسية، والتي أصبحت في المرحلة المعاصرة عبارة عن ممازجة بين ما هو نظري وما هو ميداني وهنا يمكن القول: أن أي دراسة هي مفارقة علمية، بين ما هو نظري، وما هو ميداني، حيث يحاول الباحث إنزال النظرية من السماء إلى الأرض، وقياسها في بيئته التي يجري حولها الدراسة.⁽¹¹⁾ أي أن التحقيقات الميدانية لم تعد مجرد عبث فكري، بل أصبحت تمثل خزانة معرفية من أجل تطوير أي مدخل نظري، رغم كل الصعوبات التي يتلقاها الباحثون، خاصة عندما يتعلق الأمر بالشأن السياسي، إذ يتحول الباحث في مخيلة الباحثين إلى بوليس سري هدفه الإطاحة بنا.

المجتمع المحلي وثنائية الشأن السياسي والمخبر:

يقول انتونيوغدنز: المخيلة الاجتماعية تجعلنا ندرك أن الكثير من الأحداث التي تؤثر في ظاهرها على الفرد فحسب إنما تعكس قضايا أوسع وأهم⁽¹²⁾ أن

أغلب الصعوبات التي تعرض لها الباحثين أثناء القيام بتحقيقاتهم الميدانية، فسروها بطريقة فيها الكثير من السطحية مستعملين عبارة عدم تعاون المبحثن، لكن استعمال المخيلة الاجتماعية الفذة أو ذات الأفق الواسع تجعلنا نعود إلى واقع هذا المجتمع، طارحين سؤال لماذا يرفض مجتمعنا المحلي التعامل مع البحوث ذات الطابع السياسي؟ انه سؤال حقا جدير بالطرح وجديرا أيضا بالتنقيب حوله، وهنا يجدر بنا العودة إلى التراكمات السوسيوثقافية لمجتمعنا المحلي، مجتمع مرتبك في علاقته مع السلطة السياسية بصفة عامة، وهذا يا يدفعه إلى تجنب كل ما يتعلق بها، حتى يأمن ما تكيده هي ضده، دولة تتجسس عليه، تراقبه، تريد معرفة ما يفكره فيه، كلها أمور يقوم بها الباحث الذي تحول في نظر مجتمع الدراسة إلى مخبر أو بوليس سري، وهنا يحق لنا العودة إلى مفهوم الدولة المرتبكة حسب هيثم غالب الناهي، اذ يعرفها على أنها دولة تدير المجتمع بالجيش والسلطان دون فهم كيفية إدارة المجتمع.⁽¹³⁾

البحث الميداني إذا وفي حالة تناوله للشأن السياسي، أصبح في نظر مجتمع الدراسة لا يختلف عن استجواب في مركز الأمن، حيث يشعر المبحوث بالخوف والقلق بمجرد سؤاله عن مواقفه السياسية، ولذلك نجده يتعامل بحذر وخوف وشك مع الباحث، فنحن في مجتمعاتنا المحلية لم نتعود على فكرة البحوث العلمية ودراسة الرأي العام، لكننا نمتلك تاريخ طويل وعريض مع الجوسسة، ومع تصيد عثرات المواطنين، وهنا يمكن العودة إلى احد أهم الشعراء السياسيين من أمثال احمد مطر ونزار قباني ومحمود درويش وما كتبه حول المخبرين، وانتشارهم في المدن العربية، من اجل تصيد كل من يفكر في الاعتراض على الشأن السياسي، المخبر أو البوليس السري هو ذلك الرجل الذي لا نعرف لكنه يتتبع حركاتنا وسكناتنا ويسجل كل شيء عنا من اجل أن يرفع تقريراً حولنا، أنها سيمات يشترك فيها مع الباحث، وهنا حق لمجتمعنا

إن لا يثق في هذا الباحث، وهذا ما عبر عنه كل الباحثين، خاصة الذين اعتمدوا على تقنية المقابلة والتي تجعلهم وجها لوجه مع الباحثين، هنا نجد أغلبهم يفضل الاستمارة كونها تعطي المبحوث هامش من الحرية، خاصة مع وجود طرف ثالث يقوم بتوزيعها على عينة الدراسة، حيث لا يمتلك الباحث سمعة جيدة في مجتمعه.

إن خوف الباحثين من الباحث في الدراسات السوسيوسياسية ربما له مبرراته في مجتمعنا المحلي، كما أن هذه الصعوبة نجدها حتى في المجتمعات الكبيرة والأكثر تحضرا، حيث يشير الباحث صلاح قنوصة إلى أن التحديات التي تقف في وجه موضوعية العلوم الإنسانية تجتمع حول نقطتين، هما موضوع الدراسة من جهة، والباحث من جهة أخرى.⁽¹⁴⁾ فموضوع الدراسة كل ما كان حساس فان مسار التنقيب حوله سيكون صعب ومعقد، كما أن قلة خبرة الباحث وعدم تمكنه من الأدوات المنهجية سيزيد من صعوبة المهمة، خاصة في مجتمع يربط بين دخول السجن وفكرة الخوض في الشأن السياسي مع شخص غريب أو غامض، كما أن تناول مواضيع من قبل المعارضة الراديكالية، أو بعض الحركات الانفصالية، أو حتى تلك التي تحمل أفكارا لا تتوافق مع السائد السياسي يمكن أن يعرض الباحثين فعلا للخطر، خاصة إذا كانت الدراسة تتعلق بشخصيات عامة، فانه من الضروري اتخاذ إجراءات من طرف الباحث من اجل حماية الباحثين من التحقيقات الرسمية، ويجب أيضا على الباحث حسب أدلر الحيلولة دون دخول الباحث أو المبحوث إلى السجن.⁽¹⁵⁾

إن هذه العلاقة المرتبكة بين الباحث الذي يريد جمع معطيات من اجل استخدامها لأغراض علمية، وبين مجتمع لا يحتمل أي شخص يرد معرفة نواياه السياسية، جعلت من الباحثين المشتغلين بحقل علم الاجتماع السياسي،

يفكرون في الاعتماد إلى الاستبيانات، والاستمارات، حتى يتجنبوا الدخول مع المبحوث في عملية اخذ ورد قد تؤثر على الجانب العلمي للدراسة، لكن في نفس الوقت على الباحث أن لا يستسلم لكل مايقوله المبحوث، خاصة وانه يعرف خلفياته ويعرف ما يحكمه من هواجس وقلق وشك، وهنا يأتي دور المخيلة، إذ أن التفكير بطريقة سوسيولوجية وبعبارة أخرى اتخاذ نظرة واسعة وأكثر شمولاً يعني من جملة أمور أخرى شحذ المخيلة⁽¹⁶⁾ وهذا ما تفق حوله كل المبحثن، الذين يعرفون إن عينتهم لا تقدم معلومات صحيحة، وإنها تحاول خدعهم وإظهار مواقف غير تلك التي تضرها، خاصة نحو موقفها من الوضع السياسي والاقتصادي بصفة عامة، وهنا يجب إن يكون الباحث ملم بهذه الأوضاع، وعلى اطلاع بالدراسات السابقة، والإحصاءات، ومتتبع للحركات الاحتجاجية، حتى يستطيع قراءة ما يجمعه من معطيات ميدانية قراءة صحيحة، دون استسلام ساذج لمبحوث لا يشعر بالأمان والثقة، حيث صرح احد المبحثن قائلاً: ملامح الباحث المتوترة، وضحكه وتكريره لسؤال ماذا تريد بالضبط؟ كلها مؤشرات على انه لا يريد أن يفصح عن مواقفه، هنا يجب التعامل بحذر معه، ومحاولة منحه المزيد من الثقة، وفي نفس الوقت الكثير من الأسئلة الفخ، حتى نتفادى تصريحات عشوائية لا أساس لها⁽¹⁷⁾.

إذا البحث الامبريقي في الدراسات السوسيوسياسية، هو بحث يتميز بمعوقات وصعوبات أكثر من غيره من الدراسات، كونه يتناول الشأن السياسي، ويجعل من مصالح المواطن في مواجهة مع مصالح الساسة، بينما يكون الباحث هو الضحية، إذ عليه أن يعرف مواقف المواطنين من سلطتهم الحاكمة، ومن جهة أخرى عليه أن يتعامل مع مجتمع يحكمه الخوف ولا يريد فتح أي جبهة مع السلطة ومن ينوب عنها، ولذلك هو يعتبر الباحث احد اذرعها، خاصة أن

الثقافة الشعبية تروج لأفكار من قبل أن الدولة تعرف كل شيء، وإن الدولة ذرعها طويل، ثم أن بعض المجانين والمعتوهين هم محل شك وريبة لدى المجتمع، إذ يعتبرونهم مجرد مخبرين يريدون جمع المعلومات عنهم، ولذلك فإن الباحث يعتبر أكثر خطرا خاصة انه يطلب منهم ملا أوراق عن سنهم وسكنهم ومهنتهم، ثم يطلب منه إعطاؤه موقفهم من القضايا السياسية، انه بمثابة محضر سماع من وجهة نظرهم، وهذا ما يجعلهم يتهربون من أي تصريح، وهذا يحيلنا إلى أن مصالح المجتمع في تضارب تام مع مصالح السلطة، وهذا ما يعتبر من بين أهم عوائق البحث العلمي في دول العالم الثالث⁽¹⁸⁾.

من خلال تتبع مجريات التحقيقات الميدانية التي تعنى بالمواضيع السياسية، يمكن القول أن الباحثين يقومون بجمع معطيات هم مدركين لاحتوائها على الكثير من المغالطات، وهذا راجع إلى تخوف المجتمع بصفة عامة من الخوض في الشأن السياسي، خاصة عندما يكون وجها لوجه مع الباحث، وهنا تطرح مسألة الصدق وهي تجعلنا نفكر في مدى قدرة تقنية جمع المعلومات على قياس ما يفترض عليها قياسه⁽¹⁹⁾ أي يجب على الباحث تجنب مواجهة المبحوث بشكل مباشر مدام يدرك أن في هذه المواجهة، تأثير على نجاعة البحث ومصداقيته، خاصة وأننا في مجتمع يمكن تصنيفه على انه مجتمع يعاني بعض الخوف والحذر في تناول الشأن السياسي، رغم كل الإصلاحات السياسية ونهاية عهد القمع وتحول المعارضة السياسية إلى أمر قانوني إلا أن ترسبات مرحلة الحزب الواحد لتزال عالقة بمخيلة المجتمع، مجتمع تعود على نظام تسلطي ينكر حقوق المواطنين ويحد منها إلى درجة كبيرة⁽²⁰⁾، وهنا يمكن القول أن الشأن السياسي لازال يشكل احد أهم الطابوهات في مجتمعاتنا العربية، كما أن الخوض فيه يتطلب جرأة من طرف المواطن، ويتطلب أيضا تمرس

وتحكم الباحث في البحث وتقنياته، حتى يستطيع استقصاء المجتمع وجمع معطيات ذات مصداقية، وفي نفس الوقت عدم الدخول في صدام مع مجتمع البحث، الذي يعتبر مدى تعاونه أمر ضروري وذو أهمية قصوى من أجل صياغة تقرير أو بحث نهائي يتمتع بالمصداقية ويرتقي إلى معايير وأهداف الجودة، ويساهم في فهم المجتمع، بدل مزيد من العتمة والغموض، أهداف ربما لم نصل إليها بعد على مستوى دراستنا السوسيوسياسية التي تعاني كثيرا من إشكالية تخوف المبحثن من الباحثين، وانعكاس ذلك على نتائج الدراسة بصفة عامة، وهذا ما عبر عنه اغلب المبحثن.

مباحث مرتبك ونتائج علمية مشوهة:

إن البحث العلمي متكون من مصطلحين البحث والعلم، وهنا ما يهمنا كلمة البحث وهي مشتقة من الفعل الماضي بحث، أي تتبع، فتش، سأل، تحرى، تقصى، حاول، طلب، وبهذا يكون معنى البحث هو: طلب وتقصى الحقيقة من الحقائق أو أمر من الأمور، وهو يتطلب التنقيب والتفكير والتأمل، وصولا إلى شيء يريد الباحث الوصول إليه⁽²¹⁾ أي أن الباحث يبذل جهد مضني من أجل الوصول إلى الحقيقة أو معرفة علمية مبنية وفق منهجية رصينة، وخلفية نظرية أصيلة، بالإضافة إلى معطيات ميدانية سليمة، لكن الميدان في حالة الدراسات السوسيوسياسية قد يكون العامل الأول في تشويه نتائج البحث وضرب مصداقية تلك الدراسات، والتأثير على مدى جودتها، حيث أن ما جمعه الباحث من معطيات فيها الكثير من التشويهاات أو التصريحات غير الرصينة، التي كلما كان الباحث متمرس ومتحكم في أدواته المنهجية، وصاحب المعرفة العلمية الواسعة بتخصصه، استطاع تفادي الكثير من تلك المعطيات السطحية، ولذلك يمكن القول إن مهمة الباحث الاجتماعي صعبة وتتطلب تشخيصا واضحا ودقيقا للظاهرة، كي يتمكن من

تفسيرها بشكل عملي وصادق، مبني على البرهنة وليس التبرير،⁽²²⁾ وهنا تكمن جودة البحث وفعالية نتائجه في بناء تصورات استشرافية، حيث أن الهدف الرئيسي من البحوث العلمية هو فهم ومعرفة الواقع، من أجل التخطيط واستشراف المستقبل، وهذا ما يعتمد عليه السياسيين في المجتمعات المتقدمة حيث يتم قياس مدى توافق الرأي العام مع السياسات العامة، وهنا يمكن الإشارة إلى أحد أهم أهداف علم الاجتماع السياسي وهي عملية تقييم نتائج المبادرات السياسية.⁽²³⁾

إن فكرة التقييم في مجتمعنا تكاد تكون غير مكتملة الصورة وهذا بسبب ارتباط المجتمع بصفة عامة، وحالة الخوف والقلق التي تحكمه بالباحث، وبذلك فإن الأهداف المرجوة من الدراسات السوسيوسياسية في مجتمعاتنا المحلية خاضعة لعدة معايير من بينها الميدان، وهنا يمكن العودة إلى مفهوم الجودة العلمية انطلاقاً من مدخل اعتبار الجودة مرادفاً لتحقيق مجموعة من الأهداف (Quality as fitness of purpose) حيث ينظر إليها على أنها تتحقق كلما تحققت جملة من الأهداف الموضوعية من طرف المؤسسة الجامعية،⁽²⁴⁾ أهداف تسعى إلى فهم المجتمع والاقتراب منه، إلا أنها وحسب كل الباحثين تبدو أهدافاً صعبة المنال، بسبب تضافر عدة أسباب، منها غياب الاهتمام بالبحث العلمي بصفة عامة، ومن جهة أخرى علاقة مأزومة مع مجتمع مرتبك، وغير مهتم بنتائج البحوث العلمية، ولذلك هو لا يتردد في تشويهها، حيث صرح أحد الباحثين: "الكثير من الباحثين يسعى إلى إنهاء بحثه وهو لا يلتفت إلى النتائج، ولا إلى نوعية المعلومات التي اعتمد عليها، وبذلك فإن الكثير من الدراسات لا تعدو كونها تخمينات وتبريرات لا أساس لها من الصحة، وهنا أيضاً يلعب مجتمع الدراسة دوراً كبيراً في تشويه تلك البحوث وإفقادها صفة العلمية"⁽²⁵⁾، إذاً يمكن القول أن غياب الاهتمام من طرف الجهات الرسمية

بالبحوث العلمية، وفي نفس الوقت انتشار الخوف لدى المجتمع وتهربه من تناول الشأن السياسي مع الغرباء الذين يمثّلهم على أنهم مخبرين، أو محققين يريدون تليفيق تهمة ضده، جعل من تلك الأهداف المسطرة لتحقيق جودة عملية أو ما يمكن وصفه بحوكمة وترشيد الدراسات العلمية على مستوى جامعاتنا الوطنية، يعرف نوع من التضارب بين الأطراف المعنية بها، فالجامعة في شقها الإداري هدفها استكمال متطلبات الحصول على الشهادة، أم اللجان العلمية فهي مهتمة ببحوث نوعية، أم الباحث وبسبب ضعف ميزانيته وإشكالية الوقت، بالإضافة إلى مجتمع يسعى إلى تجنب الحوارات السياسية، جعل كل هذه الأهداف المتضاربة تؤثر بشكل كبير على مصداقية البحوث العلمية بصفة عامة، وبذلك أفقدتها جودتها المرجوة، حيث يرى جرين (Grren) إن هناك سؤال هام ينبغي التفكير فيه وهو: من هو الذي يضع تلك الأهداف المتعلقة بالجودة، هل هو المستفيد من الخدمة؟ أم الدولة؟ أم المؤسسة ذاتها؟⁽²⁶⁾

إذا تضارب الأهداف وشعور مجتمع الدراسة على أنه الحلقة الأضعف، كما أنه لا يتلمس أي فائدة من البحث، وهو يشعر أنه يقدم خدمات مجانية، لذلك نجده في كثير من الأحيان يطلب من الباحثين مقابل مادي من أجل التعاون، أو من أجل توفير عدد من المخبرين وهنا نقصد بالمخبر المبحوث، وجعلهم يقدمون معطيات للباحث، وهنا يجد الباحث نفسه في كثير من الأحيان مضطراً إلى الاكتفاء بعدد محدود من المبحوثين بينما يقوم بالاختلاق مبحثين وهميين ووضع إجابات تتلاءم مع فرضياته ومع ما يريد الوصول إليه، وهذا ما أشار إليه أحد المبحثين: "كانت عينة الدراسة تتكون من 100 مبحوث، من الشباب البطال فلم يترددوا في طلب 500 دج مقابل ملا الاستثمارات، فلم يكن إمامي سوى الاكتفاء بخمسة مبحثين أما الباقي كان من مخيلتي فقط"⁽²⁷⁾ أنه

حقا فعل يرتقي إلى مستوى تشويه الدراسة، لكن في نفس الوقت الباحث مطالب بإنهاء دراسته، وهذا ما اثر على البحوث العلمية ونتائجها بصفة خطيرة.

كما أن الاستسلام لتصريحات المبحثن والاعتماد عليها دون تدخل قد يجعل من البحث ونتائجه، مجرد أوهام، إذ لا يعقل الوصول إلى نتائج دراسة تتحدث عن رضا تام من طرف الشباب على الوضع الاقتصادي والمهني، وعلى السياسات العامة المسطرة من اجل التكفل بهم، حيث ترى الباحثة كرين برتون إن أي مجتمع عادي أو سوي لا يخلو من التنديد بالحكومة وبالطبقة الحاكمة⁽²⁸⁾ وهذا دليل على أن كل التصريحات التي تكون خلاف هذا، هي تصريحات مشوهة وإن أي باحث صدقها وتعامل معها، إنما دراسته سطحية وغير ممحصّة بشكل كافي، كما انه دليل على أن الباحث غير ملم بخصوصية المجتمع المحلي، الذي لا يمكن إنكار عدم رضاها عن الوضع السياسي بصفة عامة، وهنا يجدر بنا الإشارة إلى أهمية معرفة المحلي ومعرفة خلفياته التاريخية والثقافية وكل المحددات التي تراكمت وساهمة في تكوين شخصيتنا الثقافية والهوياتية، حيث تشير كلودين شولي إلى أهمية المحلي والدور الحساس الذي يلعبه في الدراسات السوسيولوجية والانثروبولوجية، إذ نجدها تعتبر المحلي على انه المكان الذي نعيش ونتعارف فيه ومنه يعترف بنا الآخرون⁽²⁹⁾ ويجعلنا ايضا نتعرف عليهم ونذكر ما يصرحون به وما يضمرونه، وربما تكون دراساتنا مبنية على المسكوت عنه وما نقرأه من ملامح وحركات وسكنات، حيث يمكن توظيف سوسيولوجيا الجسد في معرفة تلك الحقائق التي ينكرها المبحوث تحت سلطة ووطأة العديد من الوقائع التي تقهره وتمارس عليه أكرهاتها، اكرهات لا بد على الباحث أن يعرف شفرتها ويحل رموزها، حتى لا يستسلم بكل سذاجة إلى تصريحات المبحثن وهو يدرك حالة

القلق والتوتر والإرباك التي يتخبطون فيها، لان البحوث الرصينة تجعل من الباحث يوظف كل إمكانياته من اجل تقديم صورة اقرب إلى الواقع، حتى وان لم تكن تتمتع بالموضوعية المطلقة، لكن موضوعية العلوم الاجتماعية تكمن في المزاوجة بين الأدوات المنهجية والعلمية، وبين الوقوف عند خصوصية مجتمع الدراسة وتضمنين البحث بتلك الاشارات التي تبدو ذاتية لكنها في حقيقة الأمر هي التي تميز الظاهرة الإنسانية وتعطيها موضوعيتها الخاصة.

خاتمة:

بقدر ما يزداد فهمي عن المجتمع سيصعب علي أنأجد طريقي إليه⁽³⁰⁾ هكذا صرح ادرنو وهو يلقي محاضراته الأخيرة في جامعة فرنكفورت سنة 1968، مبينا مدى صعوبة الواقعة الاجتماعية، التي تستوجب على الباحث أن يكون قادرا على فهمها من ارض المعركة الاجتماعية، وعلى الباحث أن يكسب ثقة المبحثن، وعليه أن يكون قادرا على جعلهم يتعاونون معه لأنه لا خيرات أخرى أمامه، هو يريد فهم الواقع الاجتماعي، لذلك لابد من وجود مجتمع متعاون وعلى دراية بأهداف البحث العلمي، ومؤمن بجداها، إن عدم تحقق هذه العناصر خاصة في مجتمعاتنا المحلية يعني بالضرورة صراع بين الباحث والمبحوث، ويعني أيضا معطيات لا تتمتع بالصدق والمصادقية، وبالضرورة نتائج مشوهة، وبقدر ما نحن معتقدين أننا نسيط اللثام عن مجتمعاتنا عن طريق دراسات ميدانية، نحن في حقيقة الأمر نزيد من غربتنا عن هذه المجتمعات، خاصة في الشأن السياسي، حيث لا يفرق المجتمع بين الباحث، وبين البوليس السري، وإنها لفارقة حقيقية، كونها ستؤثر بطريقة كبيرة جدا على مجريات البحث وعلى نتائج الدراسة، إنها عائق يقف حائلا بيننا وبين عملية حوكمة البحوث، والسعي إلى ترشيد الدارسات السوسيوسياسة

وتحقيق مفهوم الجودة، الأمر إذا يتطلب إصلاحات سياسية قبل كل شيء، وشرعية اجتماعية وسياسية للحاكم، حتى يقتنع المحكوم أن تصريحاته الموجهة للبحث العلمي لا يمكن أن تؤثر عليه بالمرة، هدف لا بد أن تعمل الدراسات الاجتماعية على الوصول إليه قبل التفكير في دراسة موقف المجتمع من السلطة السياسية، أو غيرها من الأمور، إذا يجب الحد من انتشار مجتمع الخوف، لا بد من تحسين صورة الباحث والبحث العلمي، كلها إصلاحات يجب النظر إليها بعين الاعتبار من أجل التحكم في هندسة البحوث، ومن أجل دراسات تتمتع بالنجاعة ويكون لها انعكاس على واقع المجتمع بعيدا عن مفهوم العلم من أجل العلم.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- زيغمونتباومن، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ترجمة سعد البزاعي وبثينة الابراهيم، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دولة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 2016، ص 17.
- 2- جميل حمداوي، المفاهيم السويولوجية عند بيار بورديو،
- 3- قسم التحرير، بياربورديو، <http://www.mominoun.com/articlesourdieu-1102>، يوم 28 /07 /2017، على الساعة 14:43.
- 4- مقابلة رقم 03، يوم 22 /07 /2017، على الساعة 17:32.
- 5- شارلين هس وير باتريسيا ليفي، البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية، ترجمة هناء الجودي، المركز القومي للترجمة، مصر بدون طبعة، 2011.
- 6- مقابلة رقم 11، يوم 28 /07 /2017، على الساعة 10:05.
- 7- شارلين هس وير باتريسيا ليفي، مرجع سبق ذكره، ص 176.
- 8- مقابلة رقم 04، يوم 23 /07 /2017، على الساعة 14:22.
- 9- عبد الغاني عماد، البحث الاجتماعي منهجيته مراحل تقنياته، منشورات جورس براس، لبنان، الطبعة الأولى، سنة 2202، ص 24.
- 10- إدغار موران، النهج إنسانية البشرية، ترجمة هاني صبحي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الطبعة الأولى، 2009، ص 207.
- 11- ربيع زمام، وكرايس الجيلالي، الاشكالية كمدخل للبحث العلمي، الندوة الوطنية الاولى حول تنمية المهارات البحثية باستخدام اسلوب التدريب، يومي 07/08 ماي 2017، قسم العلوم السياسية، المركز الجامعي تيسمسيلت، غير منشورة، ص 08.

- 12- أنتونيوغيدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، الطبعة الاولى، 2005، ص 50.
- 13- هيثم غالب الناهي، الدولة وخفيا اخفاق ماستستها في المنطقة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، الطبعة الاولى، 2016، ص 118.
- 14- صلاح قنوصة، الموضوعية في العلوم الانسانية عرض نقدي لمناهج البحث دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 207، ص 65
- 15- شارلين هس بيار وباتريسيا ليفي، مرجع سبق ذكره، ص 176.
- 16- أنتونيوغيدنز، مرجع سبق ذكره، ص 47
- 17- مقابلة رقم 11، يوم 29 / 07 / 2017، على الساعة 10: 44.
- 18- عفاف الياور، اهم تحديات ومعوقات البحث التربوي على المستوى العالمي، ندوة علمية بعنوان معوقات البحث العلمي، قسم علم النفس، كلية التربية، جامعة جدة السعودية، 1434، ص 28.
- 19- شارلين هس بيار وباتريسيا ليفي، مرجع سبق ذكره، ص 123
- 20- أنتونيوغيدنز، مرجع سبق ذكره، ص 457.
- 21- عبد الرحمن عبد الله المبكور، البحث التربوي اهميته وممارسته ومعوقاته لدى المشرف من وجهة نظر المشرفين التربوين، سوريا دار الباحثة، بدون طبعة، وبدون سنة، ص 119.
- 22- عد الغني عماد مرجع سبق ذكره، ص 25.
- 23- أنتونيوغيدنز، مرجع سبق ذكره، ص 52.
- 24- إبراهيم محمد فارس، مدخل علم الجودة، مطبعة قناة السويس، مصر، بدون طبعة، 2012، ص 14
- 25- مقابلة رقم 03، يوم 24 / 07 / 2017، على الساعة 19:33.
- 26- إبراهيم محمد فارس، مرجع سبق ذكره، ص 14.
- 27- مقابلة رقم 5، يوم 25 / 07 / 2017، على الساعة 17:35.
- 28- كرين برتون، دراسات تحليلية للثورات، ترجمة عبد العزيز فهمي، مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، بدون طبعة، 2010، ص 20.
- 29- كلودين شولي، المحلي الأصل والمصطلح، مجلة إنسانيات، مركز البحث في الانثروبولوجيا الاجتماعية، والثقافية، الجزائر، 2013 عدد 04، ص 89
- 30- تيودور فوت ادرنو، محاضرات في علم الاجتماع، ترجمة جورج كتورة، مركز الهناء القومي، لبنان، بدون طبعة، بدون سنة، ص 11..

جدول: الحالة السوسيو مهنية للمبحوثين:

الرقم	الجنس	السن	المستوى العلمي	التخصص
01	ذكر	28	ماستر	علم الاجتماع السياسي
02	ذكر	29	دكتورة	علم الاجتماع السياسي
03	ذكر	31	دكتورة	علم الاجتماع السياسي
04	انثى	29	دكتورة	علم الاجتماع السياسي
05	ذكر	31	ماجستير	علم الاجتماع السياسي
06	انثى	28	ماستر	علم الاجتماع السياسي
07	ذكر	30	ماجستير	علم الاجتماع السياسي
08	ذكر	31	دكتورة	دراسات السياسة المقارنة
09	ذكر	31	دكتورة	علم الاجتماع السياسي
10	انثى	39	ماجستير	علم الاجتماع السياسي
11	انثى	28	دكتورة	علم الاجتماع السياسي
12	ذكر	28	ماجستير	علم الاجتماع السياسي